

مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيــة
Humanities and Educational Sciences Journal



ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

أعمالُ القلوب وعِلَلُها في قصة طالوت مع بني إسرائيل(*)

د/ عقيل بن سالم الشمري
الأستاذ المشارك للقرآن وعلومه
بكلية الآداب بجامعة حفر الباطن

*) تاريخ تسليم البحث 30/5/2024   تاريخ قبوله للنشر 1/7/2024
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

أعمالُ القلوب وعِلَلُها في قصة طالوت مع بني إسرائيل

د/ عقيل بن سالم الشمري
الأستاذ المشارك للقرآن وعلومه
بكلية الآداب بجامعة حفر الباطن

الملخص

فكرة البحث الرئيسة هي دراسة أعمال القلوب في قصة طالوت مع قومه من بني إسرائيل، وذلك من خلال كتب التفسير، وسلكت منهج التحليل لكلام المفسرين واستنتاج الأعمال القلبية.

والهدف من البحث: جمع أعمال القلوب وعللها التي تحلى بها طالوت الملك الصالح مع الفئة القليلة المؤمنة، وكذلك الفئة الكثيرة الضالة.

وأبرز النتائج التي توصل لها البحث هي: أن أعمال القلوب هي المحرك للعبد، وتذكر في القرآن تحت ألفاظ خاصة بها، وتعتبر الأقوال والأفعال هي القرينة الدالة على مالم يذكر منها.

وأوصى البحث: بدراسة أعمال القلوب في قصص القرآن.

الكلمات المفتاحية: أعمال، القلوب، علل، طالوت.

The works of the heart and their causes in the story of Talut with the Children of Israel

Dr. Aqeel bin Salem Al-Shammari
Associate Professor of the Qur'an and its Sciences
Faculty of Arts, University of Hafr Al-Batin

Abstract

The main idea of the research is to study the works of the heart in the story of Talut with his people from the Children of Israel, through the books of interpretation, and I followed the method of analyzing the words of the interpreters and deducing the works of the heart.

The aim of the research: to collect the works of the heart and their causes that Talut, the righteous king, was adorned with with the small group of believers, as well as the large group of misguided people.

The most prominent results that the research reached are: that the works of the heart are the motivator of the servant, and are mentioned in the Qur'an under special terms, and the sayings and actions are considered the evidence indicating what was not mentioned from them.

The research recommended: studying the works of the heart in the stories of the Qur'an.

Keywords: works, hearts, causes, Talut.

مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فقد جعل الله كتابه نورًا وهدى للناس، وأمرنا بتدبره، وأكثر ما ذكر في القرآن قصص بني إسرائيل لما بيننا وبينهم من الشبه، وكل خلل سنقع فيه فقد وقعوا فيه قبلنا، ومن ذلك أعمال قلوبهم وأمراضها، فأحببت أن أدرس أعمال القلوب وعللها في قصة طالوت قومه، خاصة أن قومه انقسموا إلى فئتين: قلة مؤمنة، وكثرة ضالة، فكان بحثي بعنوان: (أعمال القلوب وعللها في قصة طالوت مع بني إسرائيل)، حسب ما يلي:

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- أهمية أعمال القلوب لأنها المحرك لأعمال الجوارح.

٢- ضرورة بيان عِلل القلوب التي تكون قادحًا في كمال الإيمان.

٣- مطابقة واقع طالوت وقومه لواقعنا المعاصر.

أسئلة البحث

١- ما هي أعمال القلوب التي تبعد بها طالوت وقومه المؤمنين؟

٢- ما هي أمراض القلوب التي أعاقت الفئة الكثيرة من قوم طالوت؟

٣- كيف نستلهم علاج الواقع من خلال قصة طالوت وقومه؟

أهداف البحث:

يهدف البحث لتحقيق ما يلي:

١- إيضاح الأعمال القلبية التي اتصف بها طالوت والفئة القليلة المؤمنة.

٢- بيان أمراض القلوب وعللها التي أعاقت الفئة الكثيرة الضالة.

٣- الكشف عن علاج الواقع من خلال القصة.

الدراسات السابقة:

١- التشويق الفني في القصة القرآنية، رجب أحمد عبد الرحيم، وملخصه: أنه يبين جماليات التشويق الفني في القصة القرآنية من أولها إلى آخرها، فهو يبين أن ذلك من إعجاز القرآن، فهو يتناول القصة من باب أدبي بلاغي.

٢- الدروس القيادية والتربوية من خلال قصة طالوت في القرآن الكريم وفق المنهج الاستنباطي، حسين علي الزومي، وملخصه: أنه يستخرج الجوانب القيادية والتربوية، فقد جعل هدفه ما يفيد القائد من صفات وأساليب قيادية تقوده للنجاح.

٣- القواعد الدعوية المستنبطة من قصة الملأ من بني إسرائيل في سورة البقرة، دراسة استنباطية تحليلية، عبداللطيف التويجري، وملخصه: أنه يتناول قصة طالوت ويبرز القواعد الدعوية المتعلقة بسنة المدافعة، والكشف عن القواعد الدعوية المتعلقة بحال الشدة والبلاء.



وهي أبحاث مفيدة في بابها، ويأتي بحثي يكمل ما قرره أهل العلم ممن سبقني وهو يتكلم عن زاوية لم أرَ أحدًا ذكرها، وهي أعمال القلوب وعللها.

منهج البحث:

سلكت منهجين هما:

- المنهج الاستنباطي: والذي يتم فيه قراءة أقوال المفسرين واستنطاقها لمعرفة أعمال القلوب وعللها.
- المنهج التحليلي: والذي يتم فيه تحليل قصة طالوت في سورة البقرة.

إجراءات البحث:

سلكتُ المنهج التحليلي لكلام المفسرين وكتب التربية ككتب ابن القيم وسرت حسب ما يلي:

- تفسير قصة طالوت التي وردت في سورة البقرة.
- صنفت أعمال القلوب المستنبطة من قصة طالوت إلى مطالب، ومع كل مطلب اذكر علل تلك المنزلة الإيمانية.
- عزوت الآيات إلى مواضعها.
- خرجت الأحاديث من كتب السنة مع قلة ما ورد في البحث بسبب طبيعته، مع تقديم ما ورد في الصحيحين على غيرهما.
- جمعت نصوص أهل المدرسة التأويلية، مع تحليل تلك النصوص.
- إثبات علامات الترقيم وفق قواعد الفن.

خطة البحث:

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه إلى مقدمة وتمهيد ثم ستة مطالب ثم خاتمة كما يلي:

التمهيد: وفيه ثلاثة أمور:

أولًا: مصطلحات البحث.

ثانيًا: أعمال القلوب هي الأصل.

ثالثًا: ملخص قصة طالوت مع بني إسرائيل.

المطلب الأول: منزلة رجائهم بالله.

المطلب الثاني: منزلة ثقتهم ويقينهم بالله.

المطلب الثالث: منزلة تسليمهم استسلامهم وانقيادهم لله وأحكامه.

المطلب الرابع: منزلة اعتصامهم بالله وحده.

المطلب الخامس: منزلة فرارهم من العدو إلى الله.

المطلب السادس: منزلة صبرهم وثباتهم.

الخاتمة: وتشتمل على نتائج البحث، والتوصيات.

سائلًا الله الإعانة والتوفيق، هو ولي ذلك، نعم المولى.

الأعمال والأمراض القلبية في قصة طالوت مع بني إسرائيل

التمهيد: وفيه ثلاثة أمور:

مصطلحات البحث

أولًا: أعمال القلوب: هي الأعمال التي يتعلق أداؤها بالقلب دون سائر الجوارح(١)، ومن أمثلتها: الإيمان ومحبة الله ورسوله ﷺ والتوبة والخوف والرجاء ولتوكل والاستسلام والانقياد والتواضع والافتقار وغيرها.

طالوت: وهو اسم أعجميّ كجالوت وداود، ولذلك لم ينصرف، وقيل: أنه عربيّ من الطول لما وصف به من البسطة في الجسم(٢)، ولكنه ليس من أبنية العرب فمنع صرفه للعلمية وشبه العجمة. وقد زعم الكتابيون أن طالوت هو المعروف عندهم بشاول(٣).

بني إسرائيل: وهم ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد كانت فيهم النبوة بعد أبيهم حتى بعث الله النبي محمد ﷺ وهو من ذرية إسماعيل(٤).

ثانيًا: أعمال القلوب هي الأصل: أعمال القلوب هي الأصل في الإيمان، وهي فرض على كل أحد، لا ينفك كل مسلم عن وجوبها، ومن تركها بالكلية فهو إما كافر أو منافق، وأعمال الجوارح تابعة ومتممةٌ لأعمال القلوب فلا تتم إلا بها(٥)، وهي جزء من الإيمان وشطره، وتأتي أهميتها من خلال ما يلي:

أصل الإيمان في القلب:

كما قال تعالى: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)، وقرر ابن تيمية: "أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها"(٦).

وقال أيضًا: "أن أصل الإيمان في القلب، والأعمال الظاهرة تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد، وما في القلب هو الأصل"(٧) .

أن القلوب هي محل نظر الرب:

كما قال النبي ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"(٨)، وقال القرطبي:" ويستفاد من هذا الحديث فوائد:

---

(١) أعمال القلوب حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة. سهل بن رفاع العتيبي. ١/١٥٤.
(٢) من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن. ١/١٥٩ وما بعدها.
(٣) تفسير القاسمي. ٢/١٧٩.
(٤) تفسير ابن كثير. ١/١١٤.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية. ١٨/١٨٤، وبدائع الفوائد. ٣/١٨٧.
(٦) التحفة العراقية. ص٢٤.
(٧) مجموع الفتاوى. ٧/٦٤٤.
(٨) أخرجه مسلم. برقم (٣٣).

إحداها: صـرف الهمة إلى الاعتناء بأحوال القلب وصـفاته؛ بتحقيق علومه، وتصـحيح مقاصـده وعزومه، وتطهيره عن مذموم الصـفات، واتصـافه بمحمودها؟ فإنَّه لما كان القلب هو محل نظر الله تعالى فحق العالم بقدر إطلاع الله تعالى على قلبه أن يفتش عن صـفات قلبه وأحوالها؛ لإمكان أن يكون في قلبه وصـف مذموم يمقته الله بسببه.

الثانية: أن الاعتناء بإصـلاح القلب وبصـفاته مقدم على الأعمال بالجوارح؛ لتخصـيص القلب بالذكر مقدمًا على الأعمال، وإنَّما كان ذلك لأن أعمال القلوب هي المصححة للأعمال؛ إذ لا يصح عمل شرعي إلا من مؤمن عالم بمن كلفه، مخلص له فيما يعمله، ثمَّ لا يكمل ذلك إلا بمراقبة الحق فيه، وهو الذي عبر عنه بالإحسان"[١].

العبادات تتفاوت بحسب أعمال القلوب:

كما قال النبي ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات"[٢]، فصـلاح الأعمال مبني على ما في القلوب من أعمال وتقوى، وتصغر الأعمال وتعظم حسب ما في القلوب، وهذا أمرٌ محسوس من النفس.

ثالثًا: ملخص قصة طالوت مع بني إسرائيل

وردت سـياقات عديدة لقصـة طالوت مع بني إسـرائيل، وكما هي عادة القرآن اهماله لكثير من التفاصـيل، والعناية بمفاصل الأمور ومعاقدها، وسأذكر ملخصًا من كلام المفسرين[٣] لقصته، وسأجعل العمدة كلام ابن كثير مع بعض زيادات المفسرين حتى يتناسب السياق:

"كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم احدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصـنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة؛ إلى أن فعلوا ما فعلوا فسـلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسـروا خلقًا كثيرًا وأخذوا منهم بلادًا كثيرة، ولم يكن أحدٌ يقاتلهم إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان، فلم يزل بهم تماديهم على الضـلال حتى اسـتلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسـباطهم ولم يبق من سـبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قُتل فأخذوها فحبسـوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلامًا يكون نبيًا لهم، ولم تزل تلك المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلامًا فسمع الله لها ووهبها غلامًا، ونشأ فيهم وأنبته الله نباتًا حسنًا؛ فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم مَلِكًا يقاتلون معه أعداءهم وكان الملك أيضًا قد باد فيهم، فقال لهم النبي عليه السلام: فهل عسيتم إن أقام الله لكم مُلكًا ألا تَفُوا بما التزمتم من القتال معه ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَـٰرِنَا

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم. ٦/٥٣٨.
(٢) أخرجه البخاري. برقم (١).
(٣) تفسير الطبري. ٥/٢٩٤، وتفسير البغوي. ١/٢٩٥، وتفسير ابن كثير. ١/٦٤٤-٦٤٥.

﴿وَأَبۡنَآئِنَا﴾ البقرة: ٢٤٦. أي: وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد؟ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة: ٢٤٦ أي: ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم، فعَيَّن لهم طالوت، وكان رجلًا من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك فيهم كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط فلهذا قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا﴾ البقرة:٢٤٧ أي: كيف يكون ملكًا علينا ﴿وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾ البقرة:٢٤٧ أي: ثم هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء وقيل: دباغًا، وهذا اعتراضٌ منهم على نبيهم وتعنتٍ، وكان الأولى بهم طاعةٌ وقولٌ معروف، ثم قد أجابهم النبي قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ البقرة:٢٤٧ أي: اختاره لكم من بينكم والله أعلم به منكم، ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ﴾ البقرة:٢٤٧ أي: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبرا في الحرب ومعرفة بها، ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه، وقاتل بهم طالوت جالوت وقومه.

فخرج طالوت في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل وكان جيشه يومئذ فيما ذُكر ثمانين ألفا، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ البقرة: ٢٤٩ أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه، ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦ﴾ البقرة: ٢٤٩ . أي: فلا بأس عليه قال الله تعالى ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ قال ابن عباس: من اغترف منه بيده رَوِيَ، ومن شرب منه لم يَرْوَ، ولم يتبقَ من الجيش معه إلا أربعة آلاف، وقد جاء عن البراء بن عازب ﷺ قال: "كنا نُحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا معه يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجًلا على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا النهر معه، وما جازه إلا مؤمن"(١).

فلما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ البقرة: ٢٥٠ أي: أنزل علينا صبرًا من عندك، ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ البقرة: ٢٥٠ أي: في لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾، فكانت النتيجة أن هزموهم بإذن الله وغلبوهم، وقتل داود جالوت، وآتى الله الملك الذي كان بيد طالوت، والنبوة بعد شمويل، وعلمه مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به صلى الله عليه وسلم.

(١) أخرجه البخاري. كتاب المغازي. باب عدة اصحاب بدر، حديث رقم (٣٩٥٩).

المطلب الأول: منزلة رجائهم بالله

ذكر الله قصص الأمم السابقة لأمر يتعلق بالإيمان وتقويته وبيانه، وإزالة عوائقه، وحيث كانت الأعمال القلبية هي المحرك للإيمان فكل قصة من قصص القرآن إنما هي لتقرير أعمال القلوب، وإزالة أمارضها، ومن ذلك قصة طالوت ففيها العديد من الأعمال القلبية، ومنها:

فمن أعمال القلوب الظاهرة في قصة طالوت الرجاء، وما يتبعه من حسن الظن بالله ونصره، فقد وعد الله عباده المؤمنين بالنصر وأن العاقبة لهم، ومن أوفي بعهده من الله، وقد قال طالوت وقومه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وهذا حسن ظن منهم بالله ورجائه، فلا بد أن يكون نبيهم كان يقرأ عليهم آيات الرجاء، وهي من الأعمال التي تتعلق بالإيمان الموحد بين الأنبياء.

وقد ذكر قوم طالوت السبب الذي زادهم رجاءً لله، وهو: الإيمان بقدرة الله الشاملة المحيطة بكل شيء، وهذا ما قصده قوم طالوت حينما قالوا: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فمن تفكر بأسماء الله وصفاته لا يسعه إلا رجاء الله والاعتماد عليه، وهذه علامة توحيد القلب.

وتعليق الآية رجاءهم على يقينهم بلقاء الله يبين العلاقة بين أعمال القلوب، فالاستعداد للدار الآخرة وخوف لقاء الله ورهبته يورث رجاءه والتعلق به وحده.

والرجاء هو: الثقة بكرم الله وجوده، وجاء ذكره في الأدلة الشرعية، منها:

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ العنكبوت: ٥.

كذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه".

والله يحبُّ القلب الراجي، المتطلع لفضل ربه، المنتظر كرم الله وجوده، فهذا تعبد وتذلل للمولى، فهو محبوب عند الله، وليس للعبد عنه غنى، فعبوديته تقتضي كرم سيده عليه، كما أن العامل لا يستطيع أن يؤدي عمله مالم يكن راجيًا كرمًا من المعطي، فكان الرجاء ضرورةً في القلب، وعلى قدر ما كان في قلب قوم طالوت نصرهم الله، إذا بوجود رجاء الله يتبرأ العبد من حوله وقوته.

ومن تأمل كلام طالوت وقومه أدرك أن أعمال القلوب متداخلة، فتأمل قولهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ويأتي هنا سؤال وهو:

ما سر ذكر لقاء الله مع ذكر رجائهم؟ ولماذا جاء التعبير بكلمة ﴿يَظُنُّونَ﴾ ولم يقل الله: يوقنون؟

وإذا استعرضنا كلام المفسرين في معنى الظن وجدناهم يذكرون المعنين وهما:

١- الظن بمعنى اليقين[١]، ومنه قول الله: (إني ظننتُ أني ملاقٍ حسابيه) بمعنى: متيقنٌ لقاء الله.

٢- الظن بمعنى عدم ترجح أمر، وتكون على بابها[٢].

٣- ويظهر للباحث أنه لا تعارض بين القولين فلقاء الله يقين عند المؤمن، وأما وقته فهو ينتظره في كل يوم ظنًا منه أن هذا اليوم سيكون فيه لقائي بالله، وهذا يكون عند تعلق القلب بالله والزهد في الدنيا، فإنه إذا أصبح لم ينتظر المساء، وإذا أمسى لم ينتظر الصباح.

وأما السؤال الذي يتعلق بسر اقتران لقاء الله مع رجاء النصر، فإن جوابه يكون بمعرفة ترتيب أعمال القلوب، وبيان المتداخل منها والمتقارب، وما تقوم عليه بقية الأعمال، والتفاوت بين المنازل، فقد جعل أهل السنة والجماعة الأعمال الكبرى ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، فجعلوا ذلك هو: "الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال وهو التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه والاعتماد بالقلب عليه الذي هو خلاصة التفريد ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء"[٣]، وقد أسماها بعض العلماء أركانًا[٤].

فكان الرجاء أحد أركان أعمال القلب، وركنية الرجاء جاءت من جهة افتقار العبد، فلضعفه ومسكنته وحاجته كان لابد له ممن يعلق عليه آماله، فكون الرجاء ركنٌ دليلٌ على افتقار العبد، وافتقاره وخضوعه يلزم منه رجاؤه.

وقد اجتمع لقوم طالوت مع الرجاء عدة أعمال قلبية هي من متعلقات الرجاء، ومنها:

أ- عبودية الافتقار والحاجة: وظهر هذا من دعائهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وسيأتي لها مزيد بيان.

ب- عبودية السؤال: فالإنسان الراجي يحبُّ أن يسأل مولاه، ولا تهدأ نفسه إلا بالإلحاح والضراعة، وهذا ما قام به طالوت وقومه حيث سألوا الله فقالوا: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، ولولا رجاؤهم لله لما سألوه وألحوا بسؤالهم له.

ج- عبودية المحبة: فكلما اشتد الرجاء زادت المحبة للمرجو، ولهذا كان الرجاء حادٍ والمحبة سائق كما قرره ابن القيم رحمه الله[٥]، ومحبة طالوت وقومه لله ظاهره في طاعتهم له، وتركهم شربة الماء على ما بهم من الجهد والتعب، ومعلوم أن العبد لا يترك شيئًا إلا لشيء هو أكثر محبة له.

ح- عبودية الخوف: ولهذا ذكر الله عن طالوت قومهم خوفه من لقاء الله فقال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ

(١) تفسير الخازن. ١/٤٣، وفتح القدير. ١/٣٠٤، وتفسير الشنقيطي. ١/٣٥، وتفسير السعدي. ص٢٤٩.
(٢) التحرير والتنوير. ٢/٤٩٩.
(٣) قرة عيون الموحدين. ص٣٦.
(٤) الإرشاد. الشيخ صالح الفوزان. ص٢٠.
(٥) مدارج السالكين. ١/٥١٣.

﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾، فهذا الخوف ارتبط بالرجاء فتولد منه الإقدام شوقًا لله.

خ- عبودية التعلق والانتظار: فالراجي ينتظر فضل ربه، محافظٌ على دعائه فترة انتظاره، فصار وقته مع الله، وعلى هذا كان طالوت وقومه حتى لاقوا العدو، فكان انتظارهم عبودية منهم لله.

ويُلمح في قصة طالوت وقومه أن هناك من وقع في الفهم المغلوط للرجاء، فمجرد تمني النصر بدون استعداد نفسي وإيماني وإعدادي إنما هو من باب الأماني وليس من باب الرجاء، ولهذا عمل طالوت وقومه على بذل الأسباب فاقترن رجاؤهم بعمل من خلال ما يلي:

١- طلبهم من نبيهم أن يبعث لهم ملكًا يقاتلون معه في سبيل الله.
٢- صبرهم على طول الطريق الذي سلكوه حتى يقاتلوا.
٣- هم الذين ذهبوا لطب القتال، فكان قتالهم طلبًا وليس دفعًا.
٤- تحملهم المشاق من العطش والتعب والجهد.
٥- دعاؤهم وضراعتهم وإلحاحهم في طلب النصر.

والشيء المكدر لذلك هو أنهم كانوا فئة قليلة من قوم طالوت، لكنها سنة الله في عباده، ليختبر إيمانهم.

وأما الفئة الكثيرة فكان طلبهم للنصر من باب الأماني، ولهذا اقترنت أمنيتهم بما يلي:

١- توليهم عن القتال حين كتبه الله.
٢- اعتراضهم على ملكهم بنسبه وقدرته المالية.
٣- إهمالهم مقياس العلم والقوة التي تحلى بها طالوت.
٤- ضعف عزيمتهم وعدم تحملهم مشقة العطش.
٥- رداءة أنفسهم في غلبت شهوة بطونهم لقوة إرادتهم القلبية.

فتبين بهذا أن الرجاء سببٌ من الأسباب التي توصل العبد لمطلوبه، وقد عالج طالوت وقومه المؤمنون معه الأخطاء السلوكية التي تجعل البعض يتعلق بالأسباب المادية وينسى الأعمال القلبية التي هي من اقوى الأسباب، فلا يوجد مثل التوكل في إيصاله للمطلوب، ولا مثل الخوف من الله في إيصاله للمبتغى، وأما المحبة فهي الجاذبة التي لا مثل لها، والله يرحم القلب المتعلق به، ويثيبه رأفةً به، وينيله مطلوبه.

المطلب الثاني: منزلة ثقتهم ويقينهم بالله

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ قال الطبري: "قال الذين يوقنون بالمعاد ويصدقون بالمرجع إلى الله"[1] وهذه هي منزلة اليقين والثقة بقلاء الله، وإذا تدبرنا قول طالوت وقومه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وجدنا عدة أمور:

(١) تفسير الطبري. ٤/٤٩٥.

١- قولهم: ﴿كَم﴾ وهي "خبرية لا محالة إذ لا موقع للاستفهام فإنهم قصدوا بقولهم هذا تثبيت أنفسهم وأنفس رفقائهم"(١)، وعلى هذا فلا معنى لكلام بعض المفسرين الذين جعلوها استفهامية(٢)؛ إذ ليس مرادهم السؤال عن العدد وإنما الإخبار لتقوية العزائم بالقتال.

٢- قولهم: ﴿فِئَةٍ﴾ وهي نكرة في سياق إثبات فتفيد العموم، أي أنهم أرادوا الإخبار بأن تلك الفئة التي نصرها الله لم تكن معروفة بقوة وعزةٍ ومكانة، وهذا أقوى لتعلقهم بالله وطلبهم النصر من عنده فقط، فلم يتعلقوا بحول ولا بقوة.

٣- قولهم: ﴿قَلِيلَةٍ﴾ وهي للتأكيد بأن عددهم قليل مستضعفون في الأرض.

إذا تأملنا هذه الجمل وجدناها تفيد عملًا قلبيًا من أعمال القلوب وهو: الثقة واليقين بالله ووعده.

والثقة في لغة العرب لها معنيان(٣):

- التوثق من الأمر.
- الاطمئنان.

كلا الأمرين يجتمعان في المؤمن، فالمؤمن مطمئن بالله، وبما كتبه الله، وبما اختاره الله له، وبما قسمه الله، وهو أيضًا واثقٌ في الأمر حينما يرفعه إلى الله.

وعند علماء السلوك يعرفونها بأنها: اعتماد العبد على الله وحده في كلِّ أموره(٤).

فالثقة بالله ضرورة، فليس للمؤمن خيارٌ إلا أن يثق بربه العالم القادر القدير المقتدر الحكيم، فهو الذي يختار لعبده ما يناسبه، فلا يليق بالعبد بعد ذلك إلا أن يثق بربه، فمنزلة الثقة مهمة للمؤمن وضرورة له في سيره إلى الله، إذ أن فواتها يعرض المؤمن للمخاطر أثناء حياته، ولا يستقيم له توكله، ويضطرب عليه قلبه، ويزوره القلق في أحايين كثيرة، وهذا يؤثر على تعبده وخضوعه لله.

ومما زاد اليقين عند طالوت وقومه تعلقهم بألوهية الله وربوبيته، ولهذا ورد قولهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقالوا: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، فورد اسم الله واسم الرب، وهذا لإيمانهم بألوهية الله وربوبيته.

وإذا وصل العبد للثقة بربه في كل اختياراته وما يكتبه على عبده فإنه إذا طلب شيئًا من أمور الدنيا وبذل السبب ولم يُكتب له، فلا يعتبر ما فاته من مطلوبه غنيمةً، بل يعتبر الغنيمة كل الغنيمة، والبر كل البر هو ما قسمه

---

(١) التحرير والتنوير. ٢/٤٩٩.
(٢) تفسير البيضاوي. ١/٥٤٥.
(٣) المعجم الوسيط. ١/٢٨.
(٤) مدارج السالكين. ٢/١٤٢.

الله له، وكتبه عليه، ويوقن بأن ما فاته فهو معدوم الخير له، فإذا وصل للعبد لهذا الشعور وأنس به فقد عاش منزلة الثقة، ولهذا نلاحظ أن قوم طالوت المؤمنين لم يشعروا بالعطش الشديد الذي شعر به من شرب من النهر، وذلك لأنهم لاحظوا بقلوبهم ما كتبه الله عليهم، وما اختاره الله لهم.

وثقة طالوت وقومه المؤمنون بالله لها عدة متعلقات، وهي:

- ثقتهم بالله متعلقةٌ بالتوكل:

فالثقة تثمر التوكل ولا بُدَّ، فالثقة بالله هي لبُّ التوكل وخلاصته، ولعل هذا السبب من وراء تعريف بعض العلماء للتوكل: بأنه الثقة، وهو من تفسير الشيء بأهم أركانه، مع أن التوكل أوسع منزلة من الثقة، ولهذا ورد ذكره في القرآن كثيرًا.

- ثقتهم بالله متعلقة بمنزلة الرضا بالله:

ولهذا رضي طالوت وقومه المؤمنون عن الله وما طلبه منهم من القتال، ورضوا ما طلبه منهم من الامتحان بالشرب من النهر، فالثقة درجة من درجات الرضا، فلا يمكن للعبد أن يصل للرضا بالله إلا بعد أن يثق بربه، ويثق باختياره وقسمته، ويترك الاعتراض على ربه، كما فعل المعارضون لطالوت حيث قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وقبلها عصوه وشربوا من النهر، وقد قال قتادة رحمه الله: "فشرب القوم على قدر يقينهم"(١).

- ثقتهم بالله متعلقة بالتوكل والتفويض:

أوضح ابن القيم العلاقة بين التفويض والثقة بقوله: "لو كان التفويض قلبًا لكانت الثقة سويداءه، ولو كان عينًا لكانت الثقة سوادها، ولو كان دائرة لكانت الثقة مركزها دائرتها"(٢)، والتفويض يقوم على إرجاع الأمر لله، ولا يكون هذا إلا بتمام ثقته بالله، فانظر كيف ارتبطت منزلة الثقة بالله بالتفويض والتوكل وغيرهما من منازل الدين.

وحتى نتدبر ثقة طالوت وقومه المؤمنين نجد أن هناك سببان أوصلتهم لهذا العمل الجليل:

- يأسهم من منازعة حكم الله وما كتبه الله عليهم:

فالله كتب عليهم القتال، وعدم الشرب من النهر، ودخول المعركة مع جالوت، وفي كل ذلك انقسموا إلى قسمين:

أ- الذين تولوا: فقد تولوا عن مشروعية القتال، ثم تولوا عن الامتناع من شرب النهر، وأخيرًا تولوا عن القتال الواقعي وهم الأكثر، وقد شابهم المنافقون حينما أنزل الله عليهم سورة وذكر فيها القتال كما قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠﴾ محمد: ٢٠.

(١) تفسير الطبري. ٤/٤٨٧.
(٢) مدارج السالكين. ٢/١٤٣.

ب- القليل: وهم الذين قبلوا حكم الله، ثم غلبوا شهوتهم بترك الشرب من النهر، ثم صبروا لقتال الأعداء، فانظر كيف أوصلهم اليأس من منازعة أحكام الله إلى الثقة بالله.

فالعبد حينما يصل لليأس في أن يدفع شيئًا كتبه الله، أو يُرُدُّ عنه شيئًا كتبه الله له يقوده ذلك للثقة بالله واختياره، فإن أُعطيت فالله المعطي، وإن مُنعت فالله المانع، وهو القابض الباسط سبحانه.

- **مشاهدة القلب وحدانية الله وتفرُّده:**

حينما علَّق طالوت وقومه أمرهم بالله في كلامهم ودعائهم، حيث قالوا: ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فهذا يُشعر استحضارهم بقلوبهم تفرد الله بالملك والتدبير، فكلُّ ما في السماوات وما في الأرض هو ملكٌ لله، يتصرف الله فيه ما يريد، فهو الذي يحيي ويميت، ويعطي ويمنع، وينصر ويهزم، ويشافي ويُمرض، ويهدي بفضله ويُضل بعدله، وهو أول من تصدر منه الأوامر سبحانه فليس قبله شيء، فمَن استحضر ذلك وشاهده بقلبه فلن يكون أمامه إلا الثقة بربه ذي الصفات العليا، وهذا ما حمل طالوت وقومه على ذلك.

المطلب الثالث: منزلة تسليمهم استسلامهم وانقيادهم لله وأحكامه

القليل الذين ثبتوا مع طالوت هم القليل الذي قبلوا حكم الله في بداية مشروعية القتال عليهم على يد نبيهم عليه السلام، وهذا يسمى في أعمال القلوب: التسليم والاستسلام والانقياد والقبول عن الله أحكامه، ولعل الذين تولوا عن قبول مشروعية القتال هم الذين تولوا عن القتال حين حضر البأس.

والتسليم لله وأحكامه وشرعه واجب، وبه سُمِّي المسلم مسلمًا لأنَّه مُستسلمٌ لله.

ومعنى التسليم يعود إلى: الانقياد(1)، ومنه السلامة(2) وهي: الصحة والعافية، وهناك تلازم بين الأمرين فالانقياد لله والخضوع له يجلب العافية في الدين.

ولازم التسليم ترك الاعتراض على الله، فلا يعترض على الله، ولا على أحكامه، ولا على شرعه، ولا على أوامره، ولا يجادل في منهيات الله، فإذا كمل عند المؤمن الانقياد كمُل عنده التسليم لله، وهذا ما كان عليه طالوت مع القليل من المؤمنين معه.

ومن الطبيعي أن الفئة القليلة مع طالوت لم يكونوا على درجة واحدة في التسليم والاستسلام لله والانقياد له، بل هم على درجتين:

- التسليم الأدنى: تسليم يجعل العبد راضيًا مذعنًا لله ودينه.
- التسليم الأعلى: أن يزيل العبد المؤمن من قلبه كل شبهة اعتراض على حكم من أحكام الله، أو كُرهٍ أو بُغضٍ لشيءٍ مما جاء من الله، فيزيل تلك الاعتراضات من قلبه بالكلية، حتى يكون ثقته بشرع الله أعلى من ثقته برأيه، كما قال عمر رضي الله عنه: "يا أيها الناس اتهموا رأيكم"(3).

---

(1) انظر: لسان العرب. ١٢/٢٨٩.
(2) الصحاح في اللغة. ٥/٢٢٩.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه. ٧٣٠٨.

ويقرر علماء السلوك أن التسليم لله والاستسلام لشرعه ودينه والانقياد له يتعلق بعددٍ من الأسماء الحسنى، وأصلها اسم الرب، ولهذا الشر في تكرر اسم الرب عند طالوت وقومه، فقد أخبرهم نبيهم أن آية ملك طالوت بقوله: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ البقرة: ٢٤٨ . ولما دعوا ربهم اختاروا اسم الرب فقالوا: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾، فإذا علم العبد المؤمن أنَّ ربه مدبرٌ فاعلٌ آمرٌ ناهٍ، له الشرع والخلق، عند ذلك لا يملك العبد إلا أن يستسلم لله ولشرعه ولأخباره ولأوامره، بل لا يحقق منزلة العبودية إلا إذا نظَّف قلبه من أي اعتراضٍ على أي شيءٍ شَرَعه هذا الرب سبحانه.

وعلى هذا فخلاصة التسليم والانقياد لله تقوم على: السلامة من المعارضات، بأن تُخَلِّص النفس من ثلاثة اعتراضات هي:

أ- الاعتراضات على أخبار الله: وقد سلم طالوت وقومه المؤمنون من الاعتراض على خبر الله حينما أخبرهم به نبيهم، وإخباره لهم بأن الله اختار عليهم طالوت ملكًا.

ب- الاعتراضات على أوامر الله: ولهذا قبل طالوت وقومه مشروعية القتال التي يطلبها الله منهم لقتال عدوهم وعدوه.

ج- الاعتراضات على أقدار الله: فقد امتنوا عما طلب منهم طالوت الامتناع عنه وهو الشرب من النهر، فصبروا على العطش والتعب والجهد والضنك، وكلها أمور مقترنة بالسفر.

وقد فصَّل ابن القيم في مكائد الشيطان في تسليط الاعتراضات على الاستسلام والانقياد لله(١)، فإن الشيطان يسلط الشهوة على الاستسلام فيزيله أو يضعفه، وهذا ما حدث مع قوم طالوت الذين تولوا عن القتال، فلم يستطيعوا أن يصبروا عن الشرب، ولعلهم تأولوا لأنفسهم بأنهم مجاهدون في سبيل الله، وأن الغرفة التي سُمح لهم بها لا تكفي، وغير ذلك من المبررات التي أضعفت التسليم والاستسلام والانقياد لله، فسهل عليهم الترك والتولي حينما رأوا جالوت وجنوده.

التسليم لله والاستسلام والانقياد له نوعان:

أ- التسليم لحكم الله الديني الشرعي: بأن يُسلِّم الإنسان لدين الله وشرعه بالتصديق والإذعان والتطبيق، فكل ما جعله الله دينًا مما أمر الله به أو نهى عنه، أو استحبه، أو كرهه، مما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ب- التسليم لحكم الله الكوني: والمقصود بحكم الله الكوني هو: الأمر النافذ، وهو ما قدَّره الله على العباد، وهذا على نوعين:

---
(١) مدارج السالكين. ٢/١٤٧.

الأول: أحكام قدَّرها الله يؤمر العبد بمدافعتها:

أولًا: فالتسليم لله يقتضي مدافعتها، فإذا وقع على الإنسان ظلمٌ فالتسليم لله يقتضي أن يَدفع الظلم؛ لأن الله حرَّم الظلم، وكذلك ما قدَّره الله من مرض فالتسليم لله يقتضي أن يعالج ويدفع هذا المرض بما شرعه الله من وسائل الشفاء وبما أباحه، وغير ذلك.

الثاني: أحكام قدرها الله يؤمر العبد بالصبر عليها، كالمصائب والأقدار التي لا يستطيع العبد أن يدفعها، ولا أن يفعل تجاهها شيئًا، فالتسليم لله يقتضي الصبر وجوبًا، فإن استطاع الرضا فهذا مستحبٌ، ولابد أن يكون طالوت وقومه أصابهم من ذلك الشيء الكثير، وهذا الظن بهم وهم الفئة القليلة، والطريق طويل، والمعركة دامية، فلم يقابلوا ذلك بالجزع والتسخط، إنما بالتسليم والاستسلام لله.

وأعظم استسلام طالوت وقومه المؤمنين هو استسلامهم في تحقيق أعمال القلوب، بأن أخلصوا لله في جهادهم كما رواه ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال: "لا يصحبني أحد إلا أحد له نية في الجهاد"(١) فتخصيص طالوت النية بالذكر هي الإخلاص لله، بأن يكون الدافع له في جهاده هو إعلاء كلمة الله.

والعجيب أن العبد يكتفي في ظاهره على قدر ما في باطنه من أعمال قلبية، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله في هذه القصة: "فشرب كل إنسان كقدر الذي في قلبه، فمن اغترف غرفة وأطاعه رَوِيَ لطاعته، ومن شرب فأكثر، عصى فلم يرو لمعصيته"(٢).

وعلاقة الظاهر بالباطن واكتفائه به يشبه من بعض الأوجه قول النبي ﷺ: "إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقين"(٣)، فقد قال ابن القيم في شرحها : " أن المراد به ما يغذيه الله به من معارفه، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته، وقرة عينه بقربه، وتنعمه بحبه، والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب، ونعيم الأرواح، وقرة العين، وبهجة النفوس والروح والقلب بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه، وقد يقوي هذا الغذاء حتى يغني عن غذاء الأجسام مدة من الزمان، ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيواني، ولا سيما المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قد قرت عينه بمحبوبه، وتنعم بقربه، والرضى عنه، وألطاف محبوبه وهداياه، وتحفه تصل إليه كل وقت، ومحبوبه حفي به، معتن بأمره، مكرم له غاية الإكرام مع المحبة التامة له، أفليس في هذا أعظم غذاء لهذا المحب؟ "(٤)، ولهذا اكتفى من شرب بالغرفة، وأصبح ريَّان بها، فاجتمع لطالوت وقومه المؤمنين من الإخلاص والاستسلام والانقياد لأمر الله وشرعه والصدق معه ما نصرهم الله به.

---

(١) تفسير الطبري. ٤/٤٨٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. برقم (١١٠٣).

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد. ٢/٣١-٣٢.

وضابط الاستسلام الشرعي هو أن يفعل العبد المأمورات ويترك المنهيات وهذا ما فعله طالوت وقومه بفعل الواجبات القلبية وأعمال الجوارح، فمن سلَّم لأوامر الله في أعمال القلوب استجاب وانقاد وعمِل، فالتسليم لنصوص الإخلاص والصدق هو تطبيقه للإخلاص في أقواله وأفعاله، فلا يقول كلمة إلا وهو يريد بها وجه الله، ولا يفعل فعلًا إلا وهو يبتغي رضا الله، ويجتنب الشرك خفيه وجليه، وكذلك حقيقة التسليم لنصوص الأسماء والصفات الحسنى، هو الإيمان بها، والتعبد لله على ضوئها، ومعرفة آثارها، وهكذا بقية الأوامر والأخبار الشرعية، وعلى هذا فالخلل في التطبيق والعمل إنما هو نتيجة لخلل في كمال التسليم والاستسلام لله، وهو ما حدث عند الفئة الكثيرة من قوم طالوت إذ أنهم لم يستسلموا لمشروعية القتال أصلًا حينما قال الله عنهم: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وقد اجتمع لطالوت وقومه مع التسليم الرضا القلبي، لأن الرضا القلبي هو ثمرة التسليم كما قرره ابن القيم(١)، فالتسليم لله فرعٌ عن الرضا، فكمال التسليم أن يحصل الإنسان على كمال الرضا بشرع الله ودينه وأوامره وما شرعه الله ﷻ، وهذا ما حصل لطالوت وقومه المؤمنين حيث أنهم رضوا بما كتبه الله عليهم، وأدوا فريضة القتال، ولا يمنع ذلك أن يحدث بعض النفسية التي يلقيها الشيطان في طريق الطاعات ولابد؛ إلا أنها تذهب بالتسليم الكامل لله وشرعه حتى تنقاد نفسه ويكون هواه تبعًا لما جاء الله به، ولا علاج لشبهات الشيطان القلبية التي يلقيها تجاه الأوامر والنواهي إلا بالازدياد من التسليم لله، وهي وإن كانت تعتبر عللًا إلا أنها تذهب بالتسليم والانقياد لله، والعبد عليه أن يجتهد في تنقية قلبه من هذه الشوائب، وذلك لا يكون إلا حينما يستسلم لله خالقًا آمرًا.

المطلب الرابع: منزلة اعتصامهم بالله وحده

الملاحظ في دعاء طالوت ومن معه: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أنهم أنزلوه بالله، ولاذوا به وحده دون غيرهم، ولم يعتمدوا على قوتهم مع أن لله بيَّن أن طالوت أوتي بسطة في العلم والجسم، فهو يتمتع بالذكاء الحاد، ومعرفة ساحة المعارك وإدراتها، والخطط العسكرية، خاصة وأن الله قد بعثه عليهم لأجل القيادة، ومع كل هذه الأسباب إلا أنه وقومه اعتصموا بالله؛ لعلمهم بأن الاعتصام به واجب لا مناص منه، ويدل لهذا الوجوب:

- قوله تعالى: "واعتصموا بالله هو مولاكم" وهذا أمرٌ يقتضي الوجوب، وذكر في الآية الاعتصام وسببه، وهو ولاية الله.
- وقوله: "واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا" وقد ذكر في الآية الاعتصام ونهى عن ضده تأكيدًا لوجوب الأمر به.
- ومن الأدلة العقلية أن مَن عرف ضعف الإنسان أدرك أنه لا بد أن يعتصم بقوي له القوة المطلقة، وذلك هو الله، فعلى هذا فالاعتصام ضرورة للعبد.

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. ٤/١٥٢١.

ومنزلة الاعتصام بالله من أوائل الأعمال القلبية التي يتعبد بها العبد؛ لأن الإنسان في بداية سلوكه السير لله تعترضه أعداؤه من نفسه والشيطان فيحتاج لأن يعتصم بالله.

الاعتصام لغةً: افتعال من العصمة، وهو يدل على الامتناع والاحتماء والتمسك(١).

وعند علماء السلوك: هو احتماء العبد بربه عن كل شيء يؤذيه ، أو امتناع العبد بربه(٢)، وما يؤذي العبد إما نفسه التي بين جنبيه أو عدوه الخارجي الشيطان الرجيم، وهذا ما تسلط على قوم طالوت أول الأمر حين كُتب عليهم القتال، فقد تولوا عنه، وهذا التولي من قبل النفس بتسليط من الشيطان لزعزعة الإيمان، ومن هنا جعل الله السكينة التي أتتهم مع التابوت علامة لهم ليزدادوا إيمانًا فقال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٢٤٨، وهذا أحد أسرار التعبير عمن جاوز النهر مع طالوت بأنه مؤمن أي مصدق معتصم بالله، فقال الله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ ولم يقل من أسلم معه ، وإنما شهد له بالإيمان لاعتصامه الكامل بالله من عدوه الداخلي وهي نفسه التي دعت غيره إلى مخالفة الأمر والشرب من النهر، ومن العدو الخارجي وهو الشيطان الذي أشغل غيره بتخويفه من كثرة العدو، فاحتاجوا أن يعتصموا بالله فتضرعوا إليه وقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

فاحتاجوا للاعتصام على قدر ما حولهم من المخاوف، ولكلما تقدم العبد في الإيمان درجة اشتدت حاجته للاعتصام بربه أكثر من ذي قبل ليسير آمنًا.

وقد ذكرت الآيات نتائج الاعتصام ومنها:

١- السلامة من الرياء والعجب ومخالفة الأمر والبدعة، وكلها متوفرة في طالوت وقومه:

- فالقليل الذين قَبِلوا مشروعية القتال تخلصوا من الغفلة والإعراض عن دين الله.
- ولما بدأوا باستعدادهم للقتال وأخذ العُدَّة له تخلصوا بذلك من أن يتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، بل أخذوا الكتاب بقوة.
- ولما ابتلاهم الله بالنهر تخلصوا من أهواء النفس وتبريراتها للتملص عن دين الله.
- ولما واجهوا العدو طلبوا أن يفرغ الله عليهم صبرًا تخلصوا من الحول والقوة.

٢- وأعظم نتيجة هي انتصارهم الذي قال الله عنه: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، فانظر كم جلب لهم الاعتصام بالله من الإيمان القلبي والانتصار الفعلي؟

---

(١) لسان العرب. ٤٠٣/١٢، وتاج العروس. ١٠١/٣٣.
(٢) مدارج السالكين. ٤٦٠/١.

هي النجاة من المخاوف، فقد قال الله: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.

وقصة طالوت وقومه المؤمنين تدل على أن الاعتصام بالله له شرط يجب توفره وهو: تأسيس معاملتهم على اليقين بالله[١]، وإسناد طالوت وقومه الأمر لله وإرجاعهم الشأن لإذن الله ومشيئته، وطلبهم الفرج والنصر من الله كل ذلك دل على يقينهم بالله وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، وأخباره وأحكامه، وأنه الحق سبحانه وما شرعه حقٌ ورسله عليه السلام حقٌ، ودينه حقٌ حتى وصلوا لدرجة اليقين في ذلك.

بينما نلاحظ أن الفئة الكثيرة عبدت الله على حرف أو ضعف صدقٍ، فقد شابهوا أول الأمر من قال: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾ النساء: ٧٧ ووافقوهم في النتيجة وهي الإعراض عن شرع الله.

فهذا وغيره لا يعتبر معتصمًا بالله لضعف يقينه، ولا يتصور منه أن يأتي باليقين على وجهه الكامل، ولهذا خُذلوا حينما رأوا جالوت وكثرة جنوده.

واعتصامهم بالله ليس من نوافل الإيمان، كما أنها ليست من نوافل الأعمال، بل هي ضرورةٌ لهم لا خيار لهم غيرها، فهم مضطرون بذواتهم وفقرهم إلى الاعتصام بالله؛ لأن العابد في عبوديته لله يحتاج لأمرين:

- يحتاج إلى هداية على الطريق المستقيم.
- يحتاج إلى سلامةٍ أثناء سيره على هذا الطريق.

فالهداية تحصل إذا سار على حبل الله وطريقه الموصل إليه، والسلامة تكون إذا اعتصم بالله، فرجع الأمر كله إلى الاعتصام بالله وبحبله، كما أن الآيات تدل على أنه لا غنى للعبد عن الاعتصام بالله ولو طرفة عين، وتدل أيضًا على أن من لم يعتصم بالله أصبح عاريًا منكشفًا لعدوه، فيصيب منه العدو على قدر إخلاله بمنزلة الاعتصام بالله.

وهناك علاقة ظاهرة بين الاعتصام بالله والتعلق بأسمائه وصفاته، ولهذا قال طالوت وقومه في ضراعتهم بالله: ﴿رَبَّنَا ﴾ فالمعتصم بالله عليه أن يراعي اسم الرب، والذي يعني: "المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم وبهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة"[٢]، وكلما اقترب الإنسان من فقه معاني الربوبية أكثر واعتصم به كانت حماية الله له أشد وأوثق، فإذا اقترب من ربه شبرًا اقترب الله منه ذراعًا، فإن شكر الله وحمده على توفيقه زاده الله بالقرب منه فكان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، وهذا يوجب على المعتصم بالله أن يطهر باطنه من أن يكون فيه توكلٌ أو خوفٌ أو رجاءٌ أو محبةٌ أو اعتمادٌ على غير من هو معتصم به، فكما أن القريب من المَلِك منشغلٌ بالملك ، مقبلٌ عليه ، فالمعتصم بالله نتيجة لقربه من الله فهو منشغلٌ به معتمدٌ عليه .

---

(١) مدارج السالكين. ١/٤٦٠.
(٢) تفسير أسماء الله الحسنى. الشيخ عبد الرحمن السعدي. ص٤٧.

وأسباب الاعتصام بالله عند طالوت وقومه تجتمع في أمرين:

٣- تعظيم الله حق عظمته، وإجلاله وهيبته حتى أصبح الله أكبر في أعينهم، وعندها صغر جالوت وقومه في أعينهم.

٤- امتلاء القلب من محبة الله، فعلى قدر محبته لربه يكون اعتصامه به واحتماؤه بجنابه، فالمحرك للاعتصام مقدار ما سكن في القلب من المحبة.

المطلب الخامس: منزلة فرارهم من العدو إلى الله

من منازل الدين الذي يذكرها علماء السلوك منزلة الفرار إلى الله، فهل هذه المنزلة متحققة عند طالوت وقومه؟ وما أسباب تحقيقها.

ومن تأمل تخويف من خاف من قوم طالوت الذي يكشفه الله بقوله: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ أدرك أن من أعمالهم القلبية أنهم فروا من التخويف والناس والعدو إلى الله الذي آواهم، وهذه هي منزلة الفرار، وهو واجب، يؤخذ وجوبه من:

- قوله تعالى: "ففروا إلى الله"، وهذا أمر والأمر يدل على الوجوب.

وأهل السلوك يقسمون الفرار إلى نوعين:

- فرار السعداء: بأن يهربوا من كل شيءٍ ماعدا الله.
- وفرار الأشقياء: بالهروب من الله لا إليه سبحانه وتعالى.

ومنزلة الفرار إلى الله تأتي بعدما يعتصم الإنسان بالله، ويقترب منه، ويحتمي بحماه، فعند ذلك يفر إليه؛ لأنه يجد الأمان عنده، فمِن أسماء الله المؤمن، وهذا ما حصل لطالوت وقومه فلا يزال الناس يخوفونهم، ولا تزال القصص المرعبة تصلهم عن جالوت وطغيانه، "وقد كان جالوت من أشدهم وأقواهم، وكان يهزم الجيوش لوحده"(١)، ومع كل هذا برز له داود وقاتله وثبت له ولم يفر؛ لأنه قد فرَّ من كل شيءٍ سوى الله.

ولابد أن نلاحظ أن فرار طالوت وقومه المؤمنين إلى الله استلزم أمرين:

٥- استعداد في أعمال القلب من التوكل على الله، وطلب الصبر، وسؤال الثبات؛ واليقين بوعد الله ولقائه، وتطهير النفس من المعاصي.

٦- وكذلك قارنه عملٌ واستعداد بالجوارح، فقد استعدوا للقاء، وقد أفادت الروايات(٢) أن طالوت جهَّز جيشه، وفرض للناس محفزات وهو ما يشبه السلب في شريعتنا، فجعل ابنته لمن قتل جالوت(٣)، وكان سلاح طالوت شاكٍ وفرسه قوي، فنستنتج أن الفرار إلى الله يلزمه العمل، وقوله تعالى: "ففروا إلى الله" فسرها جماعة من أهل

(١) تفسير الثعلبي. ١٣/٧.
(٢) انظر في تفسير الطبري. ٤٣٥/٤ وما بعدها، وتفسير الدر المنثور. ٧٥٢/١.
(٣) البداية والنهاية. ٢٩٧/٢.

التفسـير[1]: فروا إلى الله بالعمل بطاعته، وفروا إلى الله من عذابه إلى ثواب الإيمان به، فهذا دليل على أن الفرار إلى الله يســتلزم العمل ، فكلما ازداد المؤمن في الطاعات والصــالحات زاد فرارًا وهربًا إلى الله، فالطاعات هي مركوبه الذي يهرب به ، حتى يصل إلى الله فيكون الله سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، والفرار إلى الله يستلزم العمل؛ لأن أعمال القلوب تورث العمل ، فأعمال القلوب ليست أماني وتصورات نظرية جامدة، فمن فرَّ إلى الله بقلبه تحركت جوارحه طلبًا لله وهروبًا إليه، وعلى هذا فكل فرار إلى الله دون عمل فهو دعوى لا دليل عليها، وهنا يحسن بنا ونحن نتدبر هذه الآيات أن نفتش أكثر لندرك الوسائل التي حصل بها طالوت وقومه المؤمنون على تطبيق منزلة الفرار إلى الله بقلوبهم، ويظهر أن هناك ثلاثة أسباب رئيسية، وهي:

١- العلم بالله: وأسمائه وصــفاته ووحيه وأخباره وأخبار أنبيائه، ومن هنا جعل الله لهم العلامة هي التابوت وفيه (بقية مما ترك آل موســى وآل هارون تحمله الملائكة)، وهي من آثار الأنبياء، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بهم وبرسالتهم، وقد كان نبيهم مصدقًا لما كان عليه موسى عليه السلام.

٢- العمل بالقلب والجوارح: وذلك بتحقيق أعمال القلوب التي لا يكون المرء مؤمنًا إلا بها، ومعها الجد والاجتهاد وترك الكسـل، فالعمل هو مركوب المؤمن حال فراره، وعلى قدر جدَّه في سـيره يكون فراره لله، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من العجز والكسل[2]، ويصلي حتى تتفطر قدماه[3]، ويصوم حتى يقال: إنه لا يفطر[4].

وعلى المؤمن الفارِّ لله أن يحذر التسويف والفتور، فلا يضر العبد شيءٌ مثلهما، وعليه أن يعقد عزمه فإن العزم طرَّاد الكسـل، وهو عقد النية على الفعل مع الإصـرار فإن ذلك يولد العمل ولا بدَّ، وهذا يؤخذ من كلمة ﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ فقد قال الطبري: "يعني به شـخص بالجند ورحل بهم، وأصل الفصـل: القطع"[5]، وألحظ في هذه الكلمة أن هناك اختلافًا بين الجند في الغزو، فاحتاج الأمر إلى عقد عزم وتوكل على الله وهو ما فعله طالوت.

٣- التصــديق بوعد الله وموعوده: فإن الله وعد عباده بالنصــر والغلبة، ولم يسـتجب الله لبني إسـرائيل طلبهم في القتال إلا وهو يريد نصــرهم، ومما هو متفق عليه بين الأنبياء أن جند الله هم الغالبون، والعاقبة للمتقين، فمتى تزعزع ذلك في القلب وجاء الظن والشك في القلوب دخل الوهن وحصل الفشل.

ومثل ذلك ما حدث في غزوة الأحزاب حينما قال المؤمنون: (هذا ما وعدنا الله ورسـوله) وقال المنافقون: (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا)، وهذا التصديق بوعد الله هو فرع عن الرجاء الشرعي في القلب وسبق الكلام عنه.

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب. ١٠٣/١٨، وتفسير أبي السعود. ١٤٣/٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. (٢٨٢٣).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. (٤٨٣٧).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. (١١٤١).
(٥) تفسير الطبري. ٤٨١/٤.

ما سبق كان في تحليل كلام الفئة القليلة وأما الفئة الكثيرة فنأخذ من تدبر كلامهم معرفة عوائق الفرار والاستعداد للقاء الله، وأهم العوائق ما يلي:

- حصول المخاوف، وهو لفظ عام يشمل عدة أمور:

الخوف من الأعداء؛ ولهذا قالوا: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، قال ابن الجوزي: " أي: لا قوّة لنا"[١]، وهنا سؤال لا بد من معرفته وهو: من هو قائل هذه الكلمة؟

يذكر ابن الجوزي الخلاف في ذلك على ثلاثة أقوال[٢]:

أ- أنهم الذين شربوا أكثر من غرفة، وكانوا أهل شك ونفاق، قاله ابن عباس، والسدي.

ب- أنهم الذين قلت بصائرهم من المؤمنين، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد.

ج- أنه قول الذين جاوزوا معه، وإنما قال ذلك بعضهم لبعض، لما رأوا من قلتهم، وهذا اختيار الزجاج"[٣].

وعلى هذا: فالقول الأول سببه النفاق، والثاني سببه ضعف الإيمان، والثالث سببه الخوف الطبيعي الذي يصيب الناس.

د- وتحصيل المخاوف يشمل أيضًا الخوف على الحياة: وهذا من التعلق بها، ولهذا حين شرع عليهم القتال تولوا عنه إلا قليلًا، ويشمل ذلك الخوف من الهموم والغموم والأحزان وفوات المصالح الخاصة فيما يتعلق بالمال والأهل والأولاد والنفس.

والخلاصة أن الفارَّ إلى الله يحتاج أن يتخلص من المخاوف كلها، ولا سبيل لذلك إلا بالفرار إلى الثقة بالله وسعة رجائه، وسعة الظن به، فكل من تعلق بالله ووثق به ورجاه فالله لا يخيب أمله، ولن يكون الفار إلى الله خائفًا.

- حظوظ النفس: "فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عز وجل وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل فلا بد أن ينتهي إليه ولكن منهم من هو شاق عليه ومنهم من هو سهل عليه وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أودية وشعوب وعقبات وشوك وعوسج ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين، ولا سيما أهل الليل المدلجين فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات وإلا تعلقت بهم تلك الموانع، وتشبثت بهم تلك القواطع، وحالت بينهم وبين السير، فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته، والشيطان على قلة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه، ويخوفهم منه، فيتفق

(١) زاد المسير. ١/٢٢٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) زاد المسير. ١/٢٢٦.



مشقة الصعود وقعود ذلك المخوف على قلته وضعف عزيمة السائر ونيته؛ فيتولد من ذلك: الانقطاع والرجوع والمعصوم من عصمه الله"(١).

وهذا هو الذي أصاب الفئة الكثيرة من قوم طالوت، إذ شحوا بأنفسهم عن الموت في سبيل الله، فأصبحت أنفسهم عائقًا بينهم وبين الوصول إلى الله ورضاه.

وعلماء السلوك يجعلون عقبة النفس وحظوظها هي آخر العتبات في طريق السلوك إلى الله وعبوديته، فإن تجاوزها العبد فالطريق بعدها سهلٌ لينٌ(٢)، والمقصود من خروجه من حظوظه ألا يتبع هوى نفسه، بل يأطرها على الحق أطرًا، وألا يرى لنفسه حولًا ولا قوة، وأن يتبرأ من الاعتماد عليها، وألا ينسب إليها الفضل والإحسان، إنما هو من مِنّة الله عليه.

وتأمل كيف أن قوم طالوت أسروا في أنفسهم حظها، ثم تابعوا معه السير حتى جاوزوا النهر بعدما شربوا، فإن بعض المفسرين(٣) يجعل الذين جميع القوم تجاوزوا النهر، إلا أن بعضهم شرب وبعضهم لم يشرب، فمن شرب فهو المؤمن، ومن لم يشرب فيهم المنافق وفيهم المريض، وهم بذلك يشبهون أقسام الناس في غزوة الأحزاب التي قال الله عنها: (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض) فجعلهم قسمين اثنين.

فلما رأوا جيش جالوت خرج ما في قلوبهم من حظوظ فقالوا: ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وعلى هذا القول يجب الحذر من خفايا الأنفس وأسرارها، فإن الأزمات تخرجها، ولا علاج لذلك إلا تعاهد محاسبتها.

ولا يمكن أن تنقاد له نفسه إلا بأن يلتفت إلى عوائق وجواذب داخل خبايا النفس فيزيلها، فتبقى نفسه منجذبة إلى الملك الأعلى سبحانه وتعالى لا يشغلها شيءٌ عنه، فإن وصل العبد لهذه الحال فقد انقادت له نفسه، وأصبحت العوائق خلفه وليست أمامه.

المطلب السادس: منزلة صبرهم وثباتهم

وهذا من قولهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وهنا عدة أسئلة تدبرية في هذه الجملة:

ما معنى أفرغ؟ ولماذا اختاروه دون قول: صبّرنا؟ وما فائدة التنكير في كلمة الصبر، وما سر تقديم الصبر على الثبات؟ ولِمَ ختموا الدعاء بالنصر على الكافرين؟

بتدبر هذه الأسئلة نجد أن طالوت وقومه لديهم عمل قلبي هو الصبر، ظهرت آثاره على دعائهم، وأفعالهم وثباتهم.

---

(١) مدارج السالكين. ٢/٧.
(٢) مدارج السالكين. ٢/٨.
(٣) تفسير الطبري. ٤/٤٩١.

أما التعبير بلفظ الإفراغ "فعبروا عن إلهامهم إلى الصبر بالإفراغ استعارة لقوة الصبر، فاستعير الإفراغ هنا للكثرة مع التعميم والإحاطة"(١)، والمراد: "اصبب علينا الصبر أتمَّ صبٍّ وأبلغه"(٢).

ولفظ الإفراغ يدل على إخلاء الشيء بكامله، وهذا أحد آثار عبودية الافتقار.

وأما تثبيت الأقدام فهو استعارة لعدم الفرار شبه الفرار والخوف بزلق القدم، فشبه عدمه بثبات القدم في المأزق(٣).

وأما ترتيب هذه الثلاثة الصبر والتثبيت والنصر: فلأن الأمور المطلوبة عند المحاربة مجموع أمور ثلاثة:

فأولها: أن يكون الإنسان صبورًا على مشاهدة المخاوف والأمور الهائلة، وهذا هو الركن الأعلى للمحارب فإنه إذا كان جبانا لا يحصل منه مقصود أصلًا.

وثانيها: أن يكون قد وجد من الآلات والأدوات والاتفاقات الحسنة مما يمكنه أن يقف ويثبت ولا يصير ملجأ إلى الفرار.

وثالثها: أن تزداد قوته على قوة عدوه حتى يمكنه أن يقهر العدو(٤).

ومما يقوي منزلة الصبر عند طالوت وقومه قصر الأمل وهو الذي جعلهم يذهبون فيطلبون عدوهم وقد كان له القوة في البلاد.

والصبر إنما يستمد من تعلقهم بالله، فعلى قدر إيمانهم بالله وتصديقهم بوعده يكون صبرهم وثباتهم، وهو واجب كما دل عليه القرآن، ومعناه يقوم على الحبس(٥)، والصبر كله حبس ففيه حبس النفس، وحبس اللسان وحبس الجوارح.

والصبر ثلاثة أنواع(٦):

١- الصبر على طاعة الله: وهو ما فعله طالوت وقومه حيث صبروا على طلب العدو، وصبروا على ملاقاتهم، وصبروا على الثبات على القتال.

٢- الصبر عن معصية الله: وهو ما فعله طالوت وقومه حين صبروا عن الشرب إلا من اغترف غرفة بيده، وقد ذكر ابن زيد رحمه الله أن بعض المؤمنين مع طالوت لم يشربوا ولا حتى غرفة(٧)، وهؤلاء أخذوا بعزائم الأمور فهم أقوى إيمانًا وأشد تحملًا في ذات الله.

٣- الصبر على أقدار الله: ومن ذلك صبرهم على الأذى الذي يصيبهم ولا بد في قتالهم العدو.

---

(١) التحرير والتنوير. ٢/٤٩٩.
(٢) تفسير الرازي. ٦/٥١٤.
(٣) التحرير والتنوير. ٢/٤٩٩.
(٤) تفسير الرازي. ٦/٥١٤.
(٥) معجم مقاييس اللغة. ٣/٢٥٦.
(٦) مدارج السالكين. ٢/١٥٥.
(٧) تفسير الطبري. ٤/٤٨٨.

الخاتمة:

الحمد وحده على ما يسر من تدبر قصة طالوت وقومه، وذكر لأعمال القلوب وعللها عندهم، لأجل أن نستنير بقصتهم على واقعنا، وقد توصلت للنتائج التالية:

١- ابتلاء الله للمؤمنين بالكافرين؛ ليعلم من ينصره ورسله بالغيب.

٢- أن أعمال الجوارح من ورائها أعمالًا قلبية تحركها لمقصودها.

٣- تبين لنا تحلي طالوت والفئة المؤمنة القليلة ببعض الأعمال القلبية، ومنها:

- منزلة رجائهم بالله.
- منزلة ثقتهم ويقينهم بالله.
- منزلة تسليمهم استسلامهم وانقيادهم لله وأحكامه.
- منزلة اعتصامهم بالله وحده.
- منزلة فرارهم من العدو إلى الله.
- منزلة صبرهم وثباتهم.

٤- ظهر لنا أيضًا أنه ما من عمل من أعمال القلوب إلا ويصاحبه نقص وخلل وعوائق وهي مدار ميدان عمل الشيطان لزعزعة الإيمان، وهذا يحتاج لعلم وبصيرة.

التوصيات:

من خلال ما سبق يوصي الباحث بما يأتي:

١- **العناية** ببيان أعمال القلوب من خلال قصص الأنبياء والدعاة في القرآن الكريم.

٢- دراسة أمراض القلوب من خلال قصص الضآلين الذين ذكرهم القرآن.

وأعظمها: الإخلاص بأن يكون الدافع لعمله هو ابتغاء الأجر من الله وحده، ثم يحتاج إلى خوف من ربه ورجاء يحدوه ليسهل طريق سيره وتعبده لربه، ولابد من ثقة.

المصادر والمراجع:

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

أعمال القلوب حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة، سهل بن رفاع العتيبي، جامعة الإمام، ١٤١١هـ.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.

بدائع الفوائد، أَبو عَبْدِ اللَّهِ محمد بنِ أبي بكر بْنِ أَيُّوب ابْن قَيِّم الجَوْزِيَّةِ، المحقق: علي بن محمّد العمران (إشراف: بَكر بن عَبدِ اللَّهِ أَبُو زَيْد)، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥.

البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، الناشر دار الهداية.

التحفة العراقية في الأعمال القلبية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الناشر: المطبعة السلفية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ.

تفسير أسماء الله الحسنى، أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، المحقق: عبيد بن علي العبيد، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد ١١٢ – السنة ٣٣ –١٤٢١هـ.

تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م.

تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ

الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

الدر المنثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار هجر – مصر.

زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ

زاد المعاد في هدي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر:

مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون ، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين — بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية — بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية — بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي — بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، المحقق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، راجعه: مُحَمَّدْ أَجْمَل الإصْلَاحِي، سليمان بن عبد الله العمير، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ.

المجتبى من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية — حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ — ١٩٨٦

اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت: لبنان الطبعة الأولى، – ١٤١٩هـ –١٩٩٨ م.

الحاكم ووافقه الذهبي.

فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤هـ.

التوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين، تأليف: عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، دراسة وتحقيق: بشير محمد عيون، الناشر: مكتبة المؤيد، الطائف، المملكة العربية السعودية، مكتبة دار البيان، دمشق، الجمهورية العربية السورية.

الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الرابعة ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

الكتاب: الداء والدواء، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، حققه: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر: دار صادر — بيروت، الطبعة الأولى.

المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، دار النشر: دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت — لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارِس بن زَكَرِيّا، المحقق: عبد السَّلام محمد هَارُون، الناشر: اتحاد الكتاب العرب، الطبعة: ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.

مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: أنور الباز – عامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه — بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ.

المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو – أحمد محمد السيد – يوسف علي بديوي – محمود إبراهيم بزال، الناشر: (دار ابن كثير، دمشق – بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق – بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م.

معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.